

حكاية تلة

ريان ثابت

يقال إن الحكاية بدأت هنا على هذه التلة صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

يقال إن الحكاية انتهت هنا على هذه التلة صباح ٢٨ كانون الاول ١٩٨٣ عندما أعلنت شركة أنابيب البترول عبر البلاد العربية «تابلاين» أنها لم تعد موجودة.

يقال إن الحكاية دامت 33 سنة وبعدها ماتت الحكاية.

لكن الحكايات لا تموت. الحكايات أسرار تختبئ تحت الارض مثل أنابيب البترول وتنهض فجأة عندما يأتي الوقت للكشف عنها.



يقال إن الحكاية بدأت هنا على هذه التلة صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

لكن الحكاية بدأت على متن سفينة حربية أميركية رست في البحيرة المرة الكبرى صباح ١٤ شباط ١٩٤٥ عندما التقى ثيودور روزفلت عبد العزيز آل سعود.

الرئيس كان عائداً من يالطا حيث بدأ برسم خريطة جديدة للعالم ووقف في قناة السويس ليكمل الرسمة. أما الملك فوصل إلى هنا بعد رحلة دامت ثلاثة أيام، هي سفرته الأولى خارج البلاد. وكانت تفاصيل هذه السفارة قد أقيمت سرية خشية أن يظن السعوديون أن ملكهم هرب وتركهم يحترقون في الشمس.

في قلب كل حكاية سر لا يباح به، وسر هذه الحكاية غرق في قعر البحيرة المرة الكبرى صباح ١٤ شباط ١٩٤٥ عندما قرر الرئيس والملك كتمانهم. عادة ما تحفظ الاسرار الكبرى بين شخصين فقط، لكن هذا السر شارك في كتمانهم رجل ثالث.

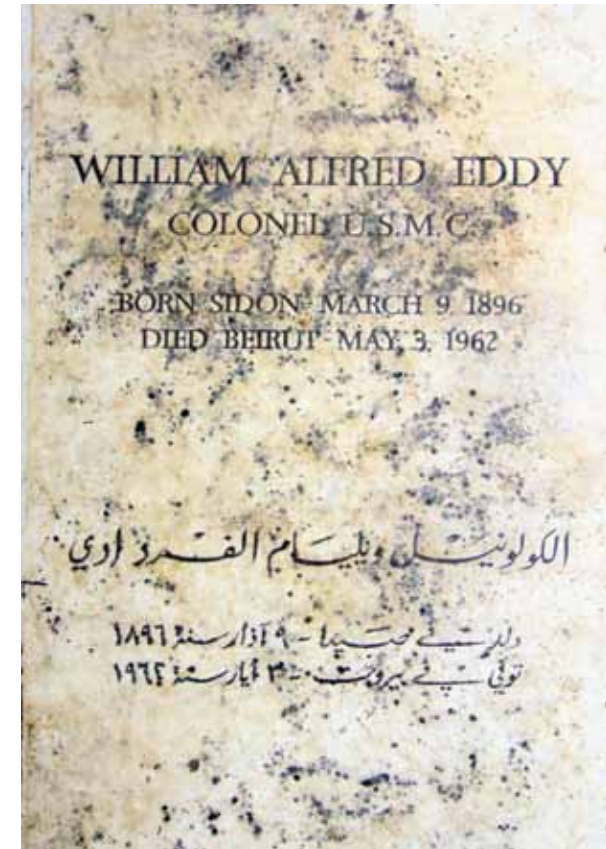
بدأت الحكاية مع ويليام إيدي الرجل الثالث، المترجم الذي نقل السر من الانكليزية إلى العربية لأن الملك السعودي والرئيس الأميركي كانا يتكلمان لغتين مختلفتين.

وبينما كان ويليام إيدي راكعاً بين الزعيمين ليترجم سر هذه الحكاية، أدرك أن الطريق التي أتت به إلى هذه السفينة كانت هي أيضاً سلسلة طويلة من الاسرار. أسرار حولته من ابن مبشرين بروتستانت في صيدا إلى طالب أدب انكليزي في برنستون، إلى استاذ جامعي في القاهرة، إلى كولونيل في المارينز في طنجة، إلى مؤسس وكالة المخابرات المركزية في واشنطن، إلى سفير أميركا في السعودية، إلى مرافق للملك عبد العزيز على متن سفينة حربية رست في البحيرة المرة الكبرى في صباح ١٤ شباط ١٩٤٥. دام الاجتماع ثلاث ساعات وتخللته استراحتان: الأولى لشرب القهوة والثانية لتناول الغداء.

يقال إن الحكاية بدأت بعدما أكل روزفلت وعبد العزيز وإيدي «كبسة» طبخت بلحم خراف طازج كانت قد رافقت الملك من جدة على سطح السفينة العلوي.



مات روزفلت بعد شهرين من اللقاء، ولحقه عبد العزيز بعد ثماني سنوات. أما ويليام إيدي فمات بعد ١٧ سنة، صباح ٣ أيار ١٩٦٢ في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، ودفن قرب مدافن أهله في صيدا. وهكذا أخذ المترجم السر والحكاية معه وأخفاهما على عمق ستة أقدام تحت أرض صيدا.



يقال إن الحكاية بدأت هنا على هذه التلة في الزهراني صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

لكن الحكاية وصلت إلى هذه التلة بعدما كانت قد بدأت وانتهت على تلة في حيفا.

في صباح ٦ آذار ١٩٤٧ وصلت جرّافات إلى حيفا لتحفر الأساس لعدد من الخزانات التي ستملأ قريباً بنفط سعودي آت عبر الأردن ليستيرج قليلاً على شاطئ المتوسط، قبل أن يُكمل رحلته إلى أوروبا وأميركا. وكانت قد وصلت الجرّافات إلى هذه التلة بسبب خط مستقيم.

فعندما اجتمع رؤساء شركات «إسو» (Esso) و«شيفرون» (Chevron) و«تيكساكو» (Texaco) النفطية مع أعضاء الكونغرس الأميركي صباح ٨ حزيران ١٩٤٦ ليقتنعوهم بأن بناء انبوب بترول يصل السعودية بالبحر المتوسط مشروع يضمن هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية على العالم، لم يتكلموا إلا عن خط مستقيم. يومها وصل المدراء إلى الاجتماع مسلحين بخريطة للشرق الاوسط رُسم عليها خطان: الاول على شكل نصف دائرة يبدأ في الدمام ويلتف حول شبه الجزيرة العربية لينتهي في قناة السويس، والثاني خط مستقيم يصل الدمام بحيفا مروراً بالمملكة الأردنية الهاشمية. الخط الاول كان خط الماضي البطيء، الخط الذي تأخذه البواخر المحملة بالنفط وتبحر بموجبه تسعة أيام مروراً بثلاثة مضائق كانت كلها تحت خطر التأميم بعد رحيل الانكليز المتوقع. أما الثاني فكان خط المستقبل، خط تداول الموارد السريع الذي سيلغي المسافة بين الخليج العربي والبحر المتوسط، وهو خط آمن يمر بصحارى خالية لا خوف فيها على الخط المستقيم من خطر الحكايات.

يقال إن الحكاية بدأت على تلة في حيفا صباح ٦ آذار ١٩٤٧ لأن أقصر مسافة بين نقطتين هي خط مستقيم.

لكن الحكاية انتهت قبل أن تبدأ صباح ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ عندما رسمت الامم المتحدة خطأً آخر قسّمت به الارض والشعب والحكاية.





وهكذا انتقلت الحكاية إلى تلة في الزهراني جنوب لبنان بعدما انحنى الخط المستقيم شمالاً ليهرب من خطوط الأمم المتحدة.

تزامن وصول بعثات المسّاحين التي أرسلت من كاليفورنيا إلى الأردن وسوريا ولبنان لترسم مساراً جديداً للخط مع وصول آلاف اللاجئين الفلسطينيين إلى الأراضي نفسها. يوماً اختلط المشهد وبدا التمييز صعباً بين الطرفين اللذين كانا يرسمان في الأرض خطوطاً لا يُعرف تماماً إلى أين ستؤدي.

انحنى الخط ومعه انحنى الحكاية لتبدأ هنا على هذه التلة في الزهراني، جنوب لبنان، صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠، عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

لكن الحكاية لا يمكنها أن تبدأ هنا قبل أن يسمح للحكاية بالعبور من سوريا.

في صباح ١١ نيسان ١٩٤٩ أطاح حسني الزعيم شكري القوتلي في انقلاب عسكري في دمشق. وحكاية حسني الزعيم هي حكاية رئاسة دامت ١٣٧ يوماً وقّعت خلالها ثلاث حكايات: الاولى حكاية نهاية أنطون سعادة والثانية حكاية وقف اطلاق النار مع اسرائيل والثالثة حكايتنا، حكاية منح حقوق امتياز الارض لشركة نفط أميركية ترسم المخطط لأطول انبوب بترو في العالم سيصل السعودية بالبحر المتوسط متيحاً بذلك للحكاية العبور من سوريا والوصول إلى لبنان.

وبعد ١٣٧ يوماً، صباح ١٦ آب ١٩٤٩، انتهت حكاية حسني الزعيم كما بدأت، فأطيح وسجن وأعدم، لكن الحكايات الثلاث التي كان قد بُدئ بكتابتها لم تنته يومها.

يقال إن الحكاية بدأت هنا على هذه التلة في الزهراني، جنوب لبنان، صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

لكن الحكاية بدأت في مصنع حديد في ولاية يوتا في ٥ كانون الاول ١٩٤٧ عندما باشرت «شركة كونسوليديتد وسترن ستيل» (Consolidated Western Steel) بتصنيع ١٢١٣ كيلومترا من الانابيب قطرها ثمانون سنتيمترا مقسمة على اجزاء طول كل منها عشرة أمتار.

شحنت الاجزاء من الولايات المتحدة إلى البلدان الاربعة التي رسم الخط على أراضيها مساره وانتظرت وصول من يصلها ببعضها لتتحول إلى أطول خط بترو في العالم.

صباح ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨ بدأ ١٦ ألف عامل بتلحيم أنابيب الحديد ليحيكوا منها حكاية البترول والبلدان العربية. كان العمال مقسمين إلى مجموعات تتألف واحدها من ١٢ شخصا. كانت كل مجموعة مسؤولة عن تركيب جزء واحد من الهيكل بالجزء التالي، محولة أشلاء حديدية مرمية في الصحراء إلى بنية تحتية لا حدود لها.

صباح ٢٥ أيلول ١٩٥٠ التحم الجزء الاخير من الخط مع بقية الحكاية وأعلن انتهاء بناء انبوب البترول عبر البلاد العربية «تابلاين».

يومها لو كنت تحلق فوق السعودية والاردن وسوريا ولبنان لرأيت ١٦ ألف رجل واقفين في صف طوله ١٢١٣ كيلومترا قرب خط حديدي مستقيم، ظاهر أحيانا ومطمور أحيانا أخرى، ينتظرون أن يتدفق سائل أسود داخله وأن تبدأ معه الحكاية.

يقال إن الحكاية بدأت على تلة «تابلاين» في الزهراني جنوب لبنان صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

وبالفعل بدأت الحكاية هنا على متن «حبيب»، الزورق الصغير الذي غادر رصيف الزهراني، قرب التلة، صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ ليلاقي ناقلة البترول الاميركية «سانسيت» (sunset) التي رست على بعد كيلومترين من الشاطئ ويصل خط الانابيب بها ايذانا بضخ السائل الاسود في خزاناتها.

بدأت الحكاية كما تبدأ كل الحكايات بهيصة وتصفيق، بطبل وزمر وبولادة شيء جديد سيغيّر مجراها. وبعد ساعات، وبينما كانت الحشود التي أتت لتشهد على هذا الحدث التاريخي، تغادر الرصيف، وبينما كانت «سانسيت» تبحر باتجاه أوروبا، عاد والتر لودفيكسون، قبطان الزورق «حبيب»، إلى الشاطئ وفتح سجل البواخر ودوّن على الصفحة الأولى تفاصيل أول عملية تحميل نفط من خلال خط أنابيب البترول عبر البلدان العربية «تابلاين».

والحكاية هي حكاية والتر لودفيكسون وهذا السجلّ الذي سيرافقه مدة ٢١ سنة ليكتب عليه حكاية ١٢٤٦ باخرة سترسو على هذا الشاطئ قرب هذه التلة، لتندفق الحكاية في داخلها وتبحر بعيدا وتبعثر الحكاية في محطات وقود العالم.

لكن حكاية والتر لودفيكسون هي أيضا حكاية رجل مهووس بالمجسمات. لطالما قالت والدة والتر إن ابنها كان شقياً جداً. فكلما كان يأتي والده بقطعة خشب ليدقّ بها منزلهم الزوجي البارد كان والتر يسرقها لينحتها زورقاً. وكلما كانت والدته تغسل شراشف تخته كانت تلاحظ أن أطرافها مقصوصة، وتعود لترى أن الزوارق التي نحتها بخشب الشتاء أصبح لها أشرعة. وعندما قبل والتر لودفيكسون وظيفة قبطان زورق في شركة «تابلاين»، مثلما قبل آلاف العمال من حول العالم وظائف مماثلة في الشركة نفسها، أحضر معه هوسه إلى التلة. كان الشيء الوحيد الذي يهدّئ أعصابه بعد ساعات طويلة كان يمضيها وهو يصارع أمواج البحر وأنابيب البترول هو بناء مجسمات صغيرة.

صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ وبينما كان يشاهد والتر لودفيكسون باخرة «سانسيت» تختفي خلف أفق المتوسط قرر أن يحول التلة والمحطة والانبوب والخزانات والباخرة والشاطئ إلى مجسم صغير.

عندما أتى أحد مسؤولي الشركة بعد بضعة أشهر لاصطحب ابن والتر كي يمضي يوماً مع أولاده على البحر، لفت انتباهه مجسم التلة كان موجودا على طاولة في غرفة الجلوس. فعندما اكتشفت الشركة موهبة والتر كلفته بصنع ثلاثة مجسمات للتلة ذاتها: الأول ليبقى في مكتب المحطة في الزهراني، والثاني ليعرض في مدخل الطابق الثامن من بناية «عريضة» في الحمراء، حيث مقر الشركة في بيروت، أما الثالث فكي يسافر إلى المقر الرئيسي للشركة القائم في إحدى ناطحات السحاب في الشارع الخامس بنيويورك.

هكذا، وفي صباح ١٠ شباط ١٩٥٢، سافرت التلة والحكاية في صندوق أسود مختم إلى نيويورك، مثلما كان الحكواتي يسافر من قرية إلى قرية ومعه صندوق يسرد من خلاله حكايات العالم.

وهكذا بدأت الحكاية.



٧

يقال إن الحكاية بدأت هنا على تلة «تابلاين» في الزهراني صباح ٢ كانون الأول ١٩٥٠ عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

لكن الحكاية بدأت في مطار لوس انجليس صباح ٧ نيسان ١٩٥٢ عندما صعد كليف ماي على متن طائرة متجهة إلى لبنان.

كان كليف ماي أحد أشهر مهندسي العمارة في لوس انجليس، وسبب شهرته يعود إلى اختراعه طريقة سهلة وسريعة ورخيصة لبناء منازل لملايين الأميركيين من الذين قرروا النزوح إلى كاليفورنيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، باحثين عن حلم أميركي في هذه الأرض القاحلة على شاطئ المحيط الهادئ. وحكاية كليف ماي والتلة هي حكاية أربعة منازل طلبت منه شركة «تابلاين» بناءها عليها.

كانت الشركة حينها تبحث عن مهندسين أميركيين ليشرفوا على المحطة والحكاية، فقررت أن تبني على تلة الزهراني أربعة منازل مطابقة تمامًا لتلك التي كان يعيش فيها مهندسو «تابلاين» في كاليفورنيا، كحافز للسفر إلى بلد غريب والاعتناء بحكاية غريبة.

صباح ٨ نيسان ١٩٥٢ وصل كليف ماي إلى تلة «تابلاين» في الزهراني وياشر برسم خرائط أربعة بيوت كاليفورنية تدير ظهرها إلى الخط الآتي من السعودية والخزانات التي يستريح فيها البترول وتطل على المكتب والمحطة والشاطئ والبواخر.

لكن الحكاية لا يمكنها أن تبدأ في منزل فارغ.



يقال إن الحكاية بدأت هنا على تلة «تابلاين» في الزهراني صباح ٢ كانون الاول ١٩٥٠ عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

لكن الحكاية بدأت صباح ١ كانون الثاني ١٩٥٣ عندما فتحت مسز جونز باب أحد المنازل الاربعة.

كانت المنازل قد فرشت بأثاث مطابق لاثاث بيت جونز في لوس انجليس. للحظة ظنت مسز جونز أنها وصلت إلى المنزل نفسه الذي كانت قد تركته البارحة، وأن حكايتها لم تتغير. لكنها سرعان ما أدركت أنها في قلب حكاية ليست حكايتها عندما وجدت كتاباً كان تركه أحد العمال قرب باقة ورد أرسلها مدير شركة «تابلاين» ليرحب بالمهندس وزوجته في منزلهما على التلة.

Introduction to Spoken Arabic of Lebanon

A Language Training Manual in 13 Chapters

Prepared at Tapline Company's Language Training Centre

page 1

Introduction

You are now beginning to learn Arabic as generally spoken in Lebanon. Learning Arabic is like learning anything else. It is a matter of adding daily to your store of information and of keeping it active by daily use. In learning Arabic you are walking into another man's land, his home and his life. You are a guest. Enjoy Arabic but be serious and courteous in your use of your host's very personal property.

تصفحت مسز جونز بقية هذا الكتاب الغريب الذي أعدته الشركة خصيصاً لتعليم عمالها الأميركيين أصول اللغة العربية بطريقة مبسطة وسهلة، ورأت أن المكان الوحيد الذي خصص لها في هذه الحكاية يقع في الفصل الاخير من الكتاب تحت عنوان "The Flower Market".

وهكذا زرعت مسز جونز أول شتلة ورد أحمر في فناء منزلها على تلة «تابلاين» بعد أن ابتاعتها من السوق الذي كانت تزوره يومياً لتتمرن على الكلام بالعربية.

198 (13 - THE FLOWER MARKET)

But they haven't sprouted yet.	bass ba9d maa farrxuw.
they sprouted	farrxuw
I buy the bulb	?ana ?aayib il-ba?li
for a pound and a quarter.	b-liy?a w-rub9.
bringing	?aayib
the bulb F	il-ba?li
I'll give you the five	ba9?lyki l-xamsi
for seven pounds.	b-sab9 liy?aat.
Fine, wrap them for me.	?ayyib, liff-illi yaahun.
wrap for me!	liff-illi !
Ready!	Haaqir !
On my own guarantee.	9a-kfaalti.
And another thing.	kamaan ?i taaniy.
You will be sure to deliver me	baddak tib?a tva?il-li
a bouquet of yellow roses	buwkaayit ward ?a?far
to this address.	9al-?adraas ha da.
you will be sure	baddak tib?a
a bouquet of roses F	buwkaayit ward
to the address	9al-?adraas
Friday,	nhaa? i"-?um9a
before noon,	?abl i?d-?uhr
around ten o'clock.	Hawaali s-saa9a 9a?ra.
around <u>or</u> about	Hawaali s-saa9a 9a?ra.
At your order, madam.	?amrik, madaam.
Thank you.	mamuwni ktivr.

يقال إن الحكاية بدأت هنا على هذه التلة صباح 2 كانون الاول 1950 عندما وصل نفط السعودية إلى البحر المتوسط.

لكن الحكاية بدأت صباح 29 نيسان 1954 عندما تحولت التلة إلى ملعب غولف.

والمنازل والملعب والمكتب والمحطة والبحر والبواخر.

في إحدى الليالي، بينما كان واقفاً في برج المراقبة يكشف على الخراف السارحة في ليل الحكاية، تخيل أبو فواز أنه بدل أن يرى محطة «تابلاين» أمامه رأى بقايا محطة شبيهة بها وقد هجرت منذ زمن طويل ولم يبق منها سوى أماكن فارغة صامتة اجتاحتها العشب والحيوانات.

وبهذه الرؤية كان أبو فواز قد تنبأ بنهاية الحكاية.

وهكذا انتهت الحكاية.



حكاية ملعب الغولف هي حكاية أبو فواز الجنيناتي. وصل أبو فواز إلى التلة صدفة صباح ٢٦ أيلول ١٩٥٣ ليسلم مسز جونز شتلتي أرتنسيا وكيساً من السواد واكتشف أخيراً ماذا تفعل هذه المرأة بكل الورود التي كانت تشتريها من السوق. لكنه اكتشف أيضاً أن هذه المرأة ليست لديها أدنى فكرة عن الزراعة والاعتناء بالازهار. يومها قرر مساعدتها. وهكذا أصبح أبو فواز يأتي كل يوم بعد دوامه في مشتل الورد إلى التلة للاعتناء بحديقة مسز جونز. وفي يوم من الايام وفيما هو يشغل شجيرة توت، اقترب منه مستر جونز وعرض عليه أن يترك شغل المشاتل الشاق ويلتحق بالشركة ليحول التلة إلى ملعب غولف.

كان عدد من عمال «تابلاين» قد أسس نادياً أسموه «الزهراي كونترى كلوب» واتفقوا على أن التلة هي المكان الملائم لاقامة ملعب غولف يطل على البحر ليمضوا فيه أوقات فراغهم، وقد أخذوا يبحثون عن محل يحول هذه التلة من أرض كلسية صفراء إلى هضبة خضراء. ورغم أنه كان يجهل كل شيء عن الغولف، قبل أبو فواز العرض ليصبح احد شخصيات هذه الحكاية. لكن سرعان ما اكتشف أن الغولف لعبة مضجرة جدا تدور حول كرة بيضاء صغيرة تتطاير في مساحات شاسعة من العشب الاخضر الذي كان عليه قصه يومياً.

والحكاية هي حكاية أبو فواز الجنيناتي مع جزارة العشب. لم يستطع أبو فواز أن يعتاد هذه الآلة العجيبة التي أتت بها الشركة من أميركا لتسهل عمله. لقد كانت سريعة جدا وتأكل كل ما في طريقها دون ان تفرق بين العشب والورد، وكان صوتها الصاخب يبقى في أذنيه حتى بعد ساعات من انتهاء استعمالها.

وليتحایل على جزارة العشب قرر أبو فواز أن يفتح السياج المحيط بالتلة ليلتين في الاسبوع ويسمح لمئات الخراف بأن تجتاح التلة وترعى العشب الزائد وهي محاطة بصمت الخزانات

١٠

يقال إن الحكاية انتهت هنا على هذه التلة صباح ٢٨ كانون الاول ١٩٨٣ عندما أعلنت شركة أنابيب البترول عبر البلدان العربية «تابلاين» أنها لم تعد موجودة.

لكن الحكاية انتهت داخل طائرة «دي سي ٣» (DC٣) صباح ٥ حزيران ١٩٦٧ عندما شاهد مايك بادو النكسة والنهاية من فوق.

يقال إن الحكايات تنتهي عندما يستطيع أحد شخصيات الحكاية أن يرى النهاية. ومايك بادو كان قد رأى كل شيء وهو معلق في السماء فوق الحكاية.

وحكاية مايك بادو كانت قد بدأت صباح ١٤ شباط ١٩٤٥ عندما حصل على رخصة طيران. يومها كان مصير الحرب العالمية الثانية لا يزال مجهولا فالتحق بادو بمدرسة حربية في مصر ليتعلم اصول الطيران ويتطوع كجندي احتياطي إذا ما طال القتال. لكن الحرب انتهت فجأة كما بدأت وصار مايك بادو يبحث عن عمل يسمح له بالطيران. في الوقت نفسه كانت شركة «تابلاين» بدأت بارسال عدد من المساحين إلى البلدان العربية ليرسموا مسار مشروع سيغبر مجرى بتول العالم. وكانت الشركة قد حصلت على ثلاث طائرات حربية من طراز «دي سي ٣» من القوات الجوية الاميركية لتساعد المساحين على استكشاف هذه الاراضي المجهولة من فوق.

صباح ١٠ تموز ١٩٤٦ أفلح مايك بادو من مطار الدمام في إحدى طائرات «تابلاين» وحلّق فوق البلدان العربية واكتشف كيف سترسم شركة نفط أميركية خطا مستقيما في الارض وترسم معه أفقا جديدا للعالم. واكب مايك بادو الحكاية وهو يطير في السماء بين السعودية ولبنان. فهو الذي ساعد المساحين على اكتشاف مسارات سهلة يمر فيها الخط، وهو الذي شاهد كيف هرب الخط من التاريخ والجغرافيا وانحنى شمالا، وهو الذي أتى بغالونات مياه تروي عطش عمال التلحيم، وهو الذي شاهد البترول يتدفق من حقول نفط الدمام ويحبس في أنبوب من حديد، وهو الذي تابع بناء محطات الضخ في الفيصومة وبدنه ورفحاء وطريف وكل منها تدفع النفط مئات الكيلومترات نحو نهاية الخط في الزهراني، وهو الذي رأى كيف تحولت التلة من هضبة كلسية فارغة إلى مخزن ومحطة ورسيف وشاطئ وباخرة، وهو الذي شاهد كيف أصبحت الاراضي حول حقول النفط ومحطات الضخ وتلة التخزين مساحات خضراء يركض عليها العمال وهم يلاحقون كريات بيضاء صغيرة.



١١

يقال إن الحكاية انتهت هنا على هذه التلة صباح ٢٨ كانون الاول ١٩٨٣ عندما أعلنت شركة أنابيب البترول عبر البلدان العربية «تابلاين» أنها لم تعد موجودة.

لكن الحكاية انتهت في الجولان صباح ١٩ أيار ١٩٦٩ عندما انفجر انبوب البترول وسال النفط في كل مكان واختلط بمياه نهر الاردن وكسا كل شيء بالاسود.

عندما وصل مهندسو «تابلاين» ليتحققوا من الحادث استقبلهم حشد من سكان المستعمرات والكيوتسات المجاورة مطالبين بحل جذري يحميهم من عمليات الفدائيين ويمنع الحكاية من أن تلوث «أرض الميعاد».

تعهدت الشركة أن تحفر في أرض الجولان بحيرات اصطناعية موصولة بشبكة من الخنادق متفرعة من خط البترول لكي يتدفق فيها النفط إذا ما تعرّض الخط للتخريب مجددا. وألقي ردم الخنادق والبحيرات فوق انبوب البترول بحيث يستحيل الوصول إليه. وبهذا دفن الخط تحت أنقاض الجولان وغرقت الحكاية أعمق في باطن هذه الارض.

لم يستعن مايك بادو بأية خريطة ليخلق فوق هذه الأراضي، إذ كان الأنبوب يساعده على الطيران ذهابا وإيابا فوق الحكاية. كان مايك ينطلق من الدمام عند السادسة صباحا ويتبع الخط الاسود المستقيم ليصل إلى القيصومة في السابعة وإلى بدنة في الثامنة وإلى رفحاء في التاسعة وإلى طريف في العاشرة. وعندما كان يعبر إلى الحدود السورية اللبنانية الساعة الرابعة بعد الظهر كان يرى الأنبوب وهو يختفي تحت الارض بسبب سلسلة من الجبال، ليعود ويظهر مجددا وهو يهبط بطائرته على تلة الزهراني عند الخامسة مساء. كان يشاهد مايك بادو كل يوم كيف تشرق الشمس على الحكاية في الخليج ويتابعها حتى تغيب في البحر المتوسط.

انتهت الحكاية صباح ٥ حزيران ١٩٦٧ عندما اختفت قطعة من الأنبوب في الجولان وصار الخط يمر بأراضٍ محتلة ولم يعد مايك بادو يستطيع أن يرى الحكاية بكاملها. يومها لو نظر أحد إلى السماء لرأى أن بين مئات طائرات «المبيغ» و «الهوك» و «الميراج» و «الميسير» و «الفوتور» و «الاوراغون» و «الفوغا»، وُجدت طائرة «دي سي ٣» قديمة بطيئة كهلة تحلق عاليا معلنة نهاية الحكاية.

١٢

يقال إن الحكاية انتهت هنا على هذه التلة صباح ٢٨ كانون الاول ١٩٨٣ عندما أعلنت شركة «تابلاين» أنها لم تعد موجودة.

لكن الحكاية انتهت في سوريا صباح ٢٤ شباط ١٩٧١ عندما ارتطمت شاحنة محملة بالمواشي بالخط وتوقف تدفق النفط.

لم يكن هذا الحادث يشبه حوادث التخريب المتعمدة التي استهدفت الخط في السنين الماضية. كان مجرد خطأ: سائق فقد السيطرة على مركبته فانقلبت على الانبوب وكسرتة وفلتت الخراف المحملة في الحقل تنغي. انتظر الجميع وصول الفريق التقني للشركة ليكشف على الحادث وليبادر بتصليح الخط وإعادة الحكاية إلى مجراها، لكن الفريق لم يأت.

في الحقيقة كانت الحكاية قد انتهت قبل يومين من اصطدام الشاحنة المحملة بالخراف بخط البترول، وذلك خلال اجتماع ضم حافظ الاسد وارسطو أوناسيس. وحكاية هذين الرجلين هي حكاية ثورتين: الاول ثار تصحيحا لحزب البعث فأصبح رئيساً، والثاني ثار على قطاع الشحن ليصبح عملاقاً.

صباح ٢٤ شباط ١٩٧١ ثار العملاق والرئيس على الحكاية. الاسد كان يطالب شركة «تابلاين» بزيادة رسوم العبور في سوريا، إذ كان بلده أقلّ المستفيدين من عملية نقل ٥٠٠ ألف برميل نفط عبر البلاد العربية، وأوناسيس كان قد استثمر في عدد من ناقلات النفط التي كان نجاحها يعتمد على فشل شركة «تابلاين» في تلبية حاجة أسواق النفط العالمية. جاء الحل بسيطاً: يماطل الرئيس في إصلاح الخط بعد أن يقطعه في حادث عابر مفسحاً للعملاق المجال أمام اقتناع شركات النفط الدولية بأن الخط المستقيم لم يعد آمناً وسريعاً، وأن عملية نقل البترول حول الخليج العربي بواسطة ناقلاته الجديدة هو الحل الامثل والأكثر أمناً والاسرع. في المقابل يوافق العملاق على دفع ضعف رسوم عبور شركة «تابلاين» للرئيس.

يومها، تصافح الرجلان بعد أن اتفقا على أن اصطدام شاحنة محملة بالخراف عن طريق الخطأ بأنبوب النفط هو الحل الوحيد الذي سينهي الحكاية.

١٣

يقال إن الحكاية انتهت هنا على هذه التلة صباح ٢٨ كانون الاول ١٩٨٣ عندما أعلنت شركة «تابلاين» أنها لم تعد موجودة.

لكن الحكاية انتهت صباح ٦ حزيران ١٩٨٢ عندما اجتاحت القوات الاسرائيلية لبنان وقصفت المحطة والخزانات واحتلت المنازل وملعب الغولف والشاطئ والبواخر وتمترست في قلب التلة لتشرّف منها على الجنوب والبحر.

وحكاية فك أسر التلة هي حكاية فتى في السابعة عشرة من عمره يدعى بلال فحص. وحكاية بلال فحص هي حكاية أول عملية استشهادية لحركة أمل.

ففي صباح ١٦ حزيران ١٩٨٤ اقتحم شخص يرتدي لباسا ابيض ويقود سيارة مرسيدس ٢٠٠ زرقاء اللون بوابة محطة «تابلاين» وفجر سيارته المفخخة بـ ١٥٠ كيلوغراما من المواد المتفجرة بدورية مؤلفة للعدو الاسرائيلي، وانتهى الهجوم باستشهاده ومقتل وجرح ما لا يقل عن عشرة عسكريين وتدمير ناقلة جنود مدرعة واعطاب ثمانية قذفا الانفجار مسافة عشرين مترا حيث اصطدمت بجدار بستان هناك.

هكذا حرر بلال فحص التلة والحكاية من الاجتياح وغطى كل شيء بالدخان ومعه انتهت الحكاية.

لكن الحكاية لا يمكنها أن تنتهي بدوي انفجار كبير. فالحكايات تنتهي دائماً بصمت. وكل حكاية صامته تنتهي مثلما بدأت مع امرأة تحكي لنا النهاية.

يقال إن الحكاية انتهت هنا على هذه التلة صباح ٢٨ كانون الاول ١٩٨٣ عندما أعلنت شركة أنابيب البترول عبر البلدان العربية «تابلاين» أنها لم تعد موجودة.

في ذلك اليوم وصلت ماري خوري إلى مكتب الشركة بعد أن عبرت عددا من الحواجز ملوحة بيدها بالتأشيرة التي تسمح لها بالوصول إلى التلة والاطمئنان على الحكاية.

دخلت ماري إلى المكتب وجلست خلف طاولة الاستقبال حيث جلست قبل ٣٣ سنة صباح ٥ كانون الاول ١٩٥٠ عندما استلمت وظيفتها كسكرتيرة في المكتب الرئيسي لمحطة «تابلاين» على تلة الزهراني. انتظرت ماري أن يرن الهاتف. ففي السنوات الخمس الماضية باتت رنّاته نادرة جدا. بعد انقطاع النفط عن التلة بدأ العمال بالرحيل واحدا تلو الآخر ولم تعد البواخر ترسو على شواطئ البحر المتوسط وفرغت الخزانات والمنازل وبدأ العشب البري يغطي ملعب الغولف. لكن ماري خوري ظلت تأتي إلى التلة بعد رحيل الجميع وتفتح المكتب وتواظب على البقاء من الثامنة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر وتنتظر أن يرن الهاتف.

صباح ٢٨ كانون الاول ١٩٨٣ رن الهاتف.

دامت المكالمة بضع دقائق تلقت خلالها ماري تعليمات بكتابة مذكرة تعلن أن جميع منشآت شركة «تابلاين» من السعودية إلى تلة الزهراني لم تعد في الخدمة وأن الشركة قد حُلّت وطلب منها أن تحزم أغراضها وأن ترحل لأن الشركات التي لا وجود لها ليست بحاجة إلى سكرتيرة. وبعد أن كتبت كل المذكرات ووضعتها في مغلفات مختومة برمز الشركة، ملمت ماري الاغراض المتبقية في المكتب من أوراق ودفاتر وسجلات وخرائط وصور ودكتيلوات وهواتف وكراسٍ وطاولات ورمتها في حفرة قرب التلة كانت قد حفرت منذ سنين لتستقبل أساسات لافتة للشركة مضاءة وكبيرة إلا أنها لم تُنجز، ثم طمرت كل شيء في التراب.

هكذا دفنت ماري خوري الحكاية في قلب التلة.

وهكذا ماتت الحكاية.





لكن الحكايات لا تموت. الحكايات أسرار تختبئ تحت الارض مثل أنابيب البترول وتنهض فجأة عندما يأتي وقت الكشف عنها.

حينها تنفجر من باطن الارض وتغطي كل شيء بسائل أسود لزج لا يمكن التخلص منه إلا بحرق كل الاسرار والحكايات.

كلام الصور:

- ١
تابلاين، قصة أطول أنبوب بترو في العالم، كتّيب شركة ترانس أرابيان بايلاين، نيويورك، كانون ثاني ١٩٥١.
- ٢
روزفلت يجتمع بابن سعود، الكولونيل وليام أ. إيدي، تجمع الأصدقاء الاميركيين للشرق الاوسط، نيويورك، ١٩٤٥.
قبر وليام إيدي في مقبرة البروتستانت، صيدا، لبنان، ٢٠٠٨. تصوير: شامي.
- ٣
تابلاين، قصة أطول أنبوب بترو في العالم، كتّيب شركة ترانس أرابيان بايلاين، نيويورك، كانون ثاني ١٩٥١.
خيم مخيم عين الحلوة للاجئين، صيدا، لبنان، ١٩٥٢. تصوير: لودفكسن، المصدر: almashriq.hiof.no
- ٦
بايلاين باريسكوب، مجلد ١٢، عدد ٧، آب ١٩٦٤. تصوير: نصر.
- ٧
كليف ماي ومنزل المزرعة الحديث، دانيال ب. غريغوري، ريزولي، نيويورك، ٢٠٠٨.
- ٨
مقدمة للعربي المحكي في لبنان، منح دباغي، جوزيف ت. قيامة، م. ي. فان فاغونر، شركة أرامكو عبر البحار، صيدا، لبنان، ١٩٥٣.
- ٩
بايلاين باريسكوب، مجلد ٧، عدد ١٠ نهاية العام ١٩٥٩. تصوير: نصر.
- ١٠
بايلاين باريسكوب، مجلد ٨، عدد ١٢ نهاية العام ١٩٥٩. تصوير: نصر.
- ١٤
بايلاين باريسكوب، مجلد ٥، عدد ٦ تشرين أول ١٩٥٧. تصوير: ساياك.
- ١٥
بايلاين باريسكوب، مجلد ٤، عدد ٣ أيار ١٩٥٦. تصوير: ساياك.

* بعض الاحداث والشخصيات الواردة في هذا النص يتقاطع مع احداث وشخصيات واقعية، لكن الخيال تدخّل في بناء النصّ بحيث اختلط وجهاه وامتزجا.